إنســـان ناجح

للأستاذ أحمد أمين

صخرى الوجه ، صُلب الجبين ، لم يعرف يوماً حمرة الخجل ، ولا برقع الحياء ، لا يتوق شيئاً ، ولا يبالى ما يقول

إن كان لكل الناس وجه ولون ولسان ، فلهذا المخلوق أوجه وألسنة وألوان

هو صديقك وعدوك حسب الظروف الخارجية ، لا حسب ما يصدر منك ، وهو مادحك وذامك حسب ما يدور فى المجلس ، لا حسب رأيه ، وهو عابس لك يوماً باسم يوماً حسب ما يقدر هو أنه فى مصلحته ، لا حسب ما تستحق أنت منه

له حاسة زائدة عن حواس الناس الخمس هى سر نجاحه ، ولهذه الحاسة خصائص : فهو يدرك بها أى نوع من الوزارات ستتولى الحكم ليحول نفسه على وفقها ، وليتجهم لاعدائها ، ويتقرب من أحبابها ؛ ويشم بها مواطن المال فى كل ظرف ، ويرى بها من يجلب له النفع ، ويؤقلم وفق ذلك نفسه ، فيتشكل بأشكال فى منتهى الظرف والطلاوة ، فاذا عدوه اللدود بالأمس صديقه الحميم اليوم

ويعرف بها — فى مهارة عجيبة — موضع الضعف من كل انسان يهمه ، فان كان يعبد النساء حدثه أعذب الحديث فى النساء والجمال وحسن الشكل ، وبدع المحاسن ، وجمال اللامح ، واستعرض نساء البلد ونساء الفرنج ، وأية حوراء العينين ، كحلاء الجفون ، ساجية الطرف ، فاترة اللحظ ، وأية أسيلة الخد ، ممشوقة القد ، وأية بيضاء اللون ، شقراء الشعر ، زرقاء العين . وأية سوداء العين ، سمراء اللون سوداء الشعر . وأية ممتلئة البدن ؛ ضخمة الخلق ، شبعى الوشاح ، وأية دقيقة الشبح نحيلة الظل مرهفة الجسم ، وتفنن فى ذلك ما شاء أن يتفنن حتى يملك لبه ، ويستعبد عقله ، فاذا هو طوع بنانه ومستودع أسراره

وإن كان سكيراً حدثه الحديث الممتع فى الشرب والشراب ، والكؤوس والأكواب وآداب النديم ، وروى له أحسن الشعر فى الخمر وحدثه عما يمزج وما لا يمزج ، وخير الخمور وموادها وتواريخها وما يلذ صبوحا وما يلذ غبوقا — وتعرف ما يستحسنه صاحبه فأفرط فى مدحه وادعى الاعجاب به ، وأنه لا يفضل عليه غيره ، وأن ذوقه من ذوقه وشرابه من شرابه ومزاجه من مزاجه ، وأسكره من حديثه كما أسكره من كأسه ، فاذا هما صديقان وثقت بينهما الكاس والطاس

وان كان شرها فى المال حدثه عن الضياع ومحاسن الأراضى وكيفية استغلالها ، والعمارات وجباياتها ، ووازن بين أنواع العقار وكم فى المائة يمكن أن تغل ، وأعانه فى مشاكله وبذل له كل أنواع معونته ، فوجد فيه صديقه النافع وخليله الوافى

وهدته حاسته هذه أن يعمد إلى عدد من الرؤوس الكبار ذوى النفوذ فينصب لهم حبالته ، ويوقعهم فى شبكته ، بما يبذر من حب ذى أشكال وألوان ، فاذا تم له ذلك خضع له الصغار من تلقاء أنفسهم وطوع ارادتهم ، وضرب لهم مثلاً بقضاء حوائج لبعضهم ما كانت تقضى من غيره ، فهو مقصد جميعهم ومحط آمالهم وموضع الرجاء منهم ، يعملون كلهم فى خدمته على أمل أن ينالوا شيئاً من جاهه ، فاذا هو سيد على الصغار والكبار ، وإذا هو عظيم حيث كان ، يقابل بالاجلال والاعظام ، ويعلق من أتباعه وإخوانه ، ويحسب حسابه فى دائرته وأوسع من دائرته

الى جانب هذه الحقائق القليلة قدر كبير من التهويش ، فهو يزعم أنه فى كل ليلة جليس الكبراء والوزراء ، كم يتغزلون فيه ويطلبون القرب منه وهو يتأبى عليهم ، ويبتعد عنهم ، وهو لو شاء لكفت إشارة منه لأن يرفع من شاء فى أعلى عليين ، ويخفض من شاء الى أسفل سافلين — الوزارات فى يده ، ومصالح الحكومة فى أصبعه — والانجليز يخشون بأسه ، والفرنسيون يقضون مصالحهم على يده — وبريده كل يوم من خارج القطر ينوء السعاة بحمله ، ثم لا أدرى كيف اتصل بالجرائد فهى تشيد دائماً بذكره ، فاذا تحرك حركة أعلنتها على الناس كما تذاع حركات الملوك ، فهو مسافر الى الأسكندرية ، وقادم من الاسكندرية ، ومبحر الى أوربا ، ومتنقل فى عواصم البلدان ، وعائد الى مصر بعد أن رفع شأنها ، وأعلى مكانها ، حتى لم يبق إلا أن تخبرنا ماذا أفطر ، وكيف أفطر ، وفى أى ساعة تناول غداءه ، وماذا كانت

أصنافه ، وهل غفا قليلاً بعد الغداء أو تحدث قليلا الى زوجه وأولاده

وهو يستغل هذا كله فى قضاء مصالحه ، فطلباته ناجزة نافذة ، والمستحيل لغيره جائز له ، والأموال تكال له كيلا ، والهدايا تنهال عليه انهيالا ، وهو مع كل ذلك لا يشبع ، كلما نال مطلبا تفتحت له مطالب ، فهو فى طلب دائم ، ومن بيدهم الأمور فى إجابة دائمة ، حتى ليوشك — إذ لم يتعود الرفض — أن يطلب النجوم تزين غرفته ، والسحاب يمطر فى الصيف حديقته ، والحر والبرد يتأدبان فى حضرته ، والشمس تكسف لطلعته

ومن غريب أمر الناس فيه أنهم يكرهونه من أعماق نفوسهم ، ويمقتونه من صميم قلوبهم ، ويرون فيه السخافة مركزة ، واللؤم مجمعاً ، فاذا لقوه فترحيب وتهليل ، واعظام وملق ، يبسطون ألسنتهم فيه بالسوء غائبا ، ويطنبون فى مدحه حاضرا ، فهو معذور إذ يشعر أن الناس مجمعة على حبه ، حتى ليخشى عليهم أن يموتوا به غراما أو يُجَنُّوا به هياما ، شهدته مرة وقد أتى عملا شنيعا حتى كان مضغة الأفواه ومعرة القوم ، وظننت الناس إن رأوه ازدروه — على الأقل — بعيونهم ، وكلوه ببعض شفاههم ، واستهانوا بمقدمه ، وأقل ما يفعلونه ألا يحفلوا به ، ولا يأبهوا بمقدمه ، فما كان أشد عجبى أن رأيتهم — إذ حضر — قد انتفضوا من أماكنهم ، وأفسحوا له مجالسهم ، وأجلّوا شأنه ، وأعظموا قدره ورفعوا منزلته فوق من يقدرون فضله ويجلون خلقه

فهو — حتى فى هذا — ينتفع بأعظامهم وإجلالهم ، ولا يضره كرههم الذى لا يعدو قلوبهم — فكرههم لأنفسهم ، وإعظامهم له ، وماذا يضره كره محتقن وخير منه حب مصطنع ، وماذا يضيره سب صادق فى إسرار ، وخير منه مدح كاذب فى إعلان ؟ لا شك أنه فى كل ذلك ناجح حتى فى الكره والذم

* * *

قال صاحبى : وهل تعد ذلك نجاحا ؟ لو كان النجاح بقضاء المصالح والأغراض والحصول على المال فخائب ، لعدونا السارق يجيد السرقة ويفلت من العقوبة ناجحاً ، ولعدونا الذى يتاجر بشرفه وعرضه ناجحاً ، ولكان أنجح الناس من حصل على المال من أقرب الوجوه ولو كان من أخسها — إن هذا الذى ذكرت قد كسب المال وخسر الشرف ، حيث مطامعه ومات ضميره ، وخدم من يظنهم كبراء أو عظماء بضعة نفسه وموت حسه ، بأى مقياس أخلاقى قسته لم تجده شيئاً ، إن قسته بمقياس الفضيلة الباقة الخاسئة لم تجده فاضلاً ، وإن قسته بمقياس السعادة لم تجده سعيداً ، إنه يتمتع ويأكل كما تأكل الأنعام ، فان كان الحمار أو الخنزير سعيداً فهذا سعيد ، وأين منه لذة ذى الضمير الحى ينعم بمواقف الشرف والنبل ، ويلذها لذة لا تعدلها ما ذكرت من مال وجاه ؛ إن الرجل الفاضل سعيد حتى فى آلامه لأنها آلام لذيذة خصبة ، هى كالنار تنضج النفس ولا تحرقها ، أما لذة صاحبك فسم فى دسم ، ونار تحرق ولا تنضج — وبعد قليل من حياته يفقد حتى لذة المال والجاه ، وتصبح لذتهما كلذة من يتناول الحلوى صباح مساء تهوّعُ نفسه وتتقبض شهيته — فان اللذة الباقية الناجعة هى لذة الروح لا الجسم ، ومن عجيب أمر الروح أن لذتها لذة صافية ، وألمها ألم مشوب بلذة ، ثم لذة هذا المخلوق لذة مشروطة بشروط ، فهو يعتقد أن لذته مرتبطة ببقاء صاحبه فى الوزارة ، وصديقه فى الوكالة ، وحميمه فى منصبه ، لأن قيمته مستمدة منهم وليست مستمدة من نفسه ، إذ ليست له قيمة ذاتية ، ونجاح مثل هذا فى أمة عنوان فشلها وسوء تقديرها ، وضعف الرأى العام فيها — وهو مثل سيء يشجع البذور السيئة على النماء والبذور الصالحة على الخفاء — قد يكون هذا المثل فى كل أمة ، ولكنه فى الأمة الصالحة نادر ، ويحتاج فى نجاحه إلى كثير من الطلاء حتى يخدع الناس ويوهمهم بصلاحه . أما أن يجرؤ ويظهر بمظهره الحقيق ثم ينجح فذلك فساد الأمة وسبة الدهر

قلت : ربما كان ما تقول صحيحاً فدعنى أفكر

أحمد أمين

ظهر حديثاً كتاب

فى أصول الأدب

صفحات من الأدب الحى والآراء الجديدة

بقلم أحمد حسن الزيات

يطلب من إدارة « الرسالة » ومن جميع المكاتب

وثمنه ١٢ قرشا عدا أجرة البريد